أســـــد + غر = ؟!

قصة أمريكية

بقلم الأستاذ محمد عصمة

أشعل الجوّاب المشهور والصياد البارع (هارى لاندون) لفافته الضخمة وقال :

— إن مغامراتى كثيرة جداً ...

ثم تنحنح وتفرس فى وجوه الحاضرين ليرى مبلغ انتباههم لحديثه . ثم استطرد :

— ومن حسن حظى أننى نجوتُ من كل ما أحاطنى من الأخطار الجسيمة ، ولعلكم تتساءلون أيها السادة : هل كنتُ جباناً رعديداً أم شجاعاً صنديداً ... أليس كذلك ؟

لقد حدث ذات يوم أن اعتقلنى الهنود الحمر ، وأنتم تعلمون كراهيتهم ومقتهم للجنس الأبيض . تصوروا أننى قضيتُ ليلة سجيناً فى أحد أكواخهم بينما كانوا يرقصون مهللين حول النار استعداداً لإعدامى فى الغد الباكر ، وفى الصباح ساقونى إلى الغابة باحتفال مهيب حضره كل أفراد القبيلة وعموا بتمزيق شر ممزق ، ولولا إسراع أصدقائى لنجدتى بينادقهم بعد أن بحثوا عنى طيلة الليل ، لأصبحتُ أثراً بعد عين ... ولكنت الآن فى عداد الأموات . وربما تعجبون إذا قلت لكم إن كل ذلك حدث دون أن أضيع رباطة جأشى

وفى مرة أخرى بينما كنت أخترق غابة كثيفة مشتبكة الأغصان ، وإذ بأفعى هائلة تسقط علىّ من دوحة عظيمة ... ولم أجزع أيضاً

وكثيراً ما وقفت أمام الموت وجهاً لوجه دون أن يخطر الخوف لى على بال . أجل يا سادتى ! هذا هو الواقع وجميع معارفى وأصحابى يعلمون ما أنا عليه من البسالة ومتانة القلب فى مواقع الصيد ومعارك القنص ، ولا يمكننى إحصاء مواقفى التى أبديت فيها من ضروب الشجاعة مايعجز عنه غيرى من الزملاء . ولكن هـذا لا يمنعنى من سرد حادثة وقعت لى إبان الشباب وكادت تقضى على حياتي أو تذهب بعقلى — على الأقل — من شدة الرعب

وصمت الرجل فجأة وغاص فى لجج من الأفكار وكان ينظر حينئذ إلى مكان قصى كأنه يريد سبر غور السنين البعيدة الخالية بعينيه الزرقاوين ثم شرع يدخن وينفث الدخان إلى فوق ، وكانت الحانة غاصة بالشاربين ، وكنت تسمع بين الفينة والفينة رنين الكؤوس وضجيج السكارى وتضاحيك النوائح إلا أن السكون شمل المكان وأنصت الجميع كأن على رؤوسهم الطير واشرأبت الأعناق لسماع حديث السائح ، وبدأ القوم ينتظرون القصة بشغف وشوق

وسئم أحد الحاضرين هـذا الصمت الطويل ولم يتمالك نفسه فجعل يستحث المحدث قائلاً :

— أتتكرم يا مستر (لاندون) وتقص علينا ما جرى لك ؟

رفع السائح رأسه وتفرس فى الوجوه من جديد كمن كان ينتظر هذا السؤال ، ثم بدأ حديثه ببطء وبصوت هادئ :

— كنت إذ ذاك ضمن حدود (نوادا) وكنت

أشتغل فى معمل ورق عظيم الشأن . وفى أحد الأيام صدر منى تقصير تافه جداً أدى إلى طردى وحرمانى من العمل . وكنت لا أملك شروى نقير وظللت أجوس الشوارع والأزقة متسولاً حيناً ، أو باحثاً عن عمل مهما ضؤل شأنه . وكنت حينئذ فى شرخ الصبا متين البنية مفتول الساعد . بيد أننى يتيم الأم والأب ، عديم الأقارب والأصدقاء ؛ ولم يكن لى من معين سوى نفسى فكأننى خلقت لأتحمل مصائب الحياة وأرزاء القدر والتمست العمل أياماً وليالى عديدة فذهب تعبى هباء وسعيى سدى

جبت بلاداً جمة فى طلب الرزق ولكن واأسفاه دون جدوى

وأخيراً ساقنى القدر إلى بلدة صغيرة تدعى (فرجينيا) وهنالك قابلت رجلاً يدير ملعباً عظيماً للحيوانات . وعرضت عليه أمرى فلم يأبه لى ولم يعن بمصيرى فى اليوم الأول

وكانت حفلات هذا الملعب المتنقل مدهشة للغاية وتدر على صاحبها الأموال الطائلة . ويحوى الملعب أندر الحيوانات وأعجب المخلوقات وأجمل الألعاب

وفى اليوم التالى ؛ قصدت المدير فى غرفة عمله وكان على غير ما عهدته بالأمس فهو شاحب اللون مشوش اللب ، يفكر ... ويفكر ...

سألته ما به ، فأبى الكلام . ثم ألححت عليه بالسؤال فنطق بالحقيقة

وكان همه الوحيد إيجاد رجل شجاع متين الأعصاب ليعهد إليه بلعبة خطرة . وزعم أن نمر اللعب مات بصورة فجائية ، وأبدع الألعاب التى يطرب لها الجمهور صراع ذلك النمر مع أسد كبير . وعرض على المدير أن ألبس جلد النمر المسلوخ وأقابل الأسد فى قفصه أمام المتفرجين ، وذلك مقابل دولار واحد عن كل حفلة . ودولار واحد حينئذ كان مبلغاً لا يستهان به وخصوصاً بالنسبة لما أنا عليه من الفقر والاحتياج ... ولكن ... كيف أضحى بحياتى فى سبيل دولار ؟

وأظن أن المدير شعر بما يجول فى خاطرى فجعل يطمئننى :

— لا تخف يا صاح ... إن أسدنا مسنّ وبليد الحركة وضعيف البصر وليس بإمكانه أن يحول رأسه نحوك . وأنا على يقين بنجاتك منه ونجاحك فى التمثيل ... لا تخش شيئاً يا بنى ... وعدا ذلك سنطعمه أكثر مما يجب ... إياك والخوف فليس عليك من بأس ، وإلا أفسدت الحفلة ... هيا بنا للعمل !

وبمثل هذه الكلمات أغرانى ونزع الخوف من قلبى انتزاعاً ، فدب الأمل فى نفسى ورضيت بهذا العمل الشاق . فاقتادنى المدير فوراً إلى إحدى غرف اللعب ، وهنالك تسلمنى فئة من الرجال وكنت ساعتئذ فاقد الإرادة تماماً أسير كالخراف المعدة للذبح فأدخلونى فى جلد نمر وشرعوا يخيطون جوانبه بمهارة فائقة تدعو للعجب ، وكأنهم اعتادوا هذا العمل . وخلال دقائق معدودة تحولت من بشر إلى حيوان مفترس شديد البطش . وبعد ذلك قادونى إلى قفص حديدى كبير رأيت فى إحدى

زواياه أسداً هائلاً يغط فى نوم عميق

وكان الملعب يعج بالألوف من أهالى (فرجينيا) وقد خدعوا بمظهرى الزيف إذ لم أكد أظهر أمامهم حتى علا ضجيجهم وهتافهم . وقد بلغ الهياج والتصفيق منتهاه ، ولكن قلبى كان طافحاً بالرعب والفزع ، وجسمى يضطرب كالريشة فى مهب الرياح . فجعلت أنظر من خلال ثقبى العينين إلى الأسد الهادئ الرزين ، فرأيته لم يبال بحضورى ، فسررت فى نفسى غاية السرور ... إلا أن الأمر ويا للأسف لم يدم طويلاً ، فقد شعر سلطان الوحوش بوجود خصم له فرفع رأسه وحرك جسمه الكبير بتثاقل ، ثم تثاءب أما أنا ... فقد أسندت رأسى إلى قضبان القفص الحديدى خشية الوقوع على الأرض فاقد الرشد . ونظرت حولى كمن يطلب المساعدة والنجدة . وأيقنت أنى هالك لا محالة ، وقد حيل بينى وبين الفرار ، وكان الخوف قد بلغ منى أشده ... يا لهول الموقف !

وعلى حين غرة ، نهض الأسد الجبار بسكون وحدق فىّ بعينيه المملوئتين شراسة ووحشية ... يا له من مخلوق جليل ! ...

لقد بدأ يقترب منى خطوة فخطوة ... أردت أن أصرخ وأستنجد ، وأبى لى الصراخ وقد بُح صوتى ، واقشعر بدنى ، واغتسل جسمى بالعرق البارد ... عرق الموت ... وبدأت صور الماضى وذكرياته تمر أمامى بسرعة هائلة ... فعجبت لربع قرن تمضى فى بضعة ثوان لا يتجاوز عددها الأصابع

وأخيراً ، استسلمت للقضاء والقدر ، وتركت نفسى لقمة سائغة لهذا الوحش الكاسر ، وأدركت أننى سأذهب ضحية من ضحايا الفقر والبؤس !

أخذ الحيوان يتمرغ على الأرض ، ويزأر بصوت عال مزعج ، وكان يضرب خشب القفص بمخالبه ويسعى للوصول إلىّ شيئاً فشيئاً كأنه يريد إرهاقى وتعذيبى وقتلى قبل المراك بمشيته الوئيدة ...

أقعيتُ منكس الرأس أبتهل إلى الله أن يقيني شر هذا الحيوان المفترس ... إلا أن الجمهور بدأ يصرخ بأعلى صوته ، ويتلهف لرؤية المعركة الحاسمة ! وفى النهاية ظهر العزم فى عينى الأسد ...

ها هو ذا قد دنا منى ، وأصبح على قيد خطوة وأنا ... وأنا ... لا أجرؤ أن أحرك ساكناً ... لقد مس رأسى بأنفه . . يكاد أن يذيبنى بحرارة أنفاسه — الآن — سيقضى على حياتى بضربة واحدة ، أجل بضربة واحدة ... وأنا ...

وفى هذه اللحظة سمعت صوتاً إنسانياً صادراً من الأسد :

— صه يا أحمق ... هل أعطاك ذاك المدير اللعين كما أعطانى دولاراً أم أكثر ؟

« دمشق » محمد عصمت

اطلب مؤلفات
الأستاذ النشاشيبي
وكتاب
الإسلام الصحيح
من مكتبة الوفد ، شارع الملك (باب البحر)
ومن المكتبات العربية المشهورة